السنة والشيعة
امتحان الأخوة والتعقل

مصطلح « أهل السنة والجماعة » ، هو الإسم المفضل الذي استقر إطلاقه على السواد الأعظم من الأمة الإسلامية . وتندرج داخل مسمى « أهل السنة والجماعة » ، أسماء مذهبية عديدة ؛ كالمذاهب الفقهية الأربعة المعروفة ، والأشاعرة ، والماتريدية ، وأهل الحديث ، وأهل الظاهر ، ومعظم الطرق الصوفية ، وغيرهم.

وعلى جنبات « أهل السنة والجماعة » ، تشكلت طوائف ومذاهب أخرى ، تتميز ببعض خصوصياتها العقدية أو المرجعية ، أوببعض مواقفها السياسية ، أو ببعض قواعدها المنهجية . وتندرج هنا أسماء : الشيعة ، والمعتزلة ، والخوارج ، وغيرهم .

وعلى مر التاريخ ، وإلى الآن ، فإن أكبر الطوائف بجانب أهل السنة ، هم الشيعة . وأكبر المذاهب الشيعية ، هو مذهب الإمامية الجعفرية . وإذا قيل الشيعة ، اليوم ، فالمقصود الشيعة الإمامية . وهم شيعة إيران والعراق ولبنان والبحرين

وباكستان وأفغانستان ...

وبغض النظر عما إذا كان الشيعة يشكلون عُشُرَ المسلمين ، أو أقل أو أكثر ، فإن كل حديث عن الوحدة والفرقة بين المسلمين ، أو عن الوئام أو الصراع بينهم ، أو عن العلاقة بين الطوائف الإسلامية ... فإنما يُعنى به أساسا: بين السنة والشيعة.

والحقيقة أن العلاقة بين السنة والشيعة ، هي المحك والمختبر، لمدى قدرة المسلمين على قبول الاختلاف والتعايش ، فضلا عن مدى تجسيدهم للوحدة والأخوة الإسلامية . بل هذا هو المحك لمدى تعقلهم ونضجهم الفكري والسياسي . نحن اليوم نستطيع أن نسجل الكثير من النقاط البيضاء المشرقة ، في علاقات السنة والشيعة ، سواء في لبنان ، أو في العراق . ولكن النقاط السوداء المظلمة في هذه العلاقة ، هي أضعافٌ مضاعفة ، مع أنها في بداية العتمة .

إنني أعتقد أن أكبر خطر يمكن أن يصيب المسلمين في حاضرهم ومستقبلهم ، هو تفجير صراع شامل بين السنة والشيعة . وهو ممكن وليس ببعيد . وما لم تتحرك قوى التعقل والتفاهم والتآخي ، تحركاتٍ ناجحةً وفعالة ، فإن القوى

الأخرى ستمضي في إنجاز « سيناريو الدمار الشامل » ، ألا وهو تفجير الصراعات والحروب السنية الشيعية.

إن المسلمين اليوم ليسوا متروكين لحالهم ومشاكلهم وشؤونهم الداخلية . إنهم اليوم ، بكل دولهم ، وبكل طوائفهم ، وبكل أحزابهم ، وبكل قضاياهم القديمة والجديدة ، موضوعون فوق الطاولة وتحت الطاولة ، وفوق المختبر وتحت المجهر، لأجل تمزيق وحدتهم ، وتعميق فرقتهم ، وتحطيم طموحاتهم ...

ولكننا اليوم ـ بالمقابل ـ في زمن وفي عالم لم يسبق له مثيل ولا شبيه ، من حيث كثافة التواصل والتفاعل على جميع الأصعدة . وهذا يخدم ويسهل قضية الحوار والتفاهم والتمازج بين السنة والشيعة ، ويعطيها فرصا وإمكانيات لاحدود لها. وهذا معناه أن بإمكان السنة والشيعة أن يحققوا لعلاقاتهم الدينية والفكرية والسياسية ، ما لم يحققه أسلافهم على مدى قرون وقرون .

بإمكاننا اليوم بسهولة ردم خنادق القطيعة والكراهية والحيطة وسوء الظن والريبة وحوار الطرشان ، وبعدها ننظرونواصل النظر، فيما بقي من خلافات علمية وفكرية ، حقيقية أو وهمية ،أو جامعة بين الوهم والحقيقة . لاعذر لأحد

اليوم في أن يقتصر في أحكامه وتصنيفاته لطوائف المسلمين ، على كتب التاريخ والتراث التاريخي، بينما بإمكانه وميسوره ، أن يجالسهم ويناظرهم ، وأن يهاتفهم ويحاورهم ، على الإذاعة والتلفزيون والإنترنت، وأن يقرأ مؤلفاتهم الحالية ومجلاتهم وبياناتهم الآنية ...

وقديما قرر اللغويون قاعدة تصلح لمقامنا ولمقامات عديدة ، وهي « إذا أمكن الاتصال فلا يُعدل عنه إلى الانفصال » . فإذا أردنا تضييق الهوة العلمية والفكرية ، فعلينا أولا ردم الهوة النفسية والجسدية . وفي الحديث عن عَائِشَةَ رضى الله عنها قَالَتْ ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ - ﷺ - يَقُولُ : « الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ »[1] .

إيران والعلاقات السنية الشيعية

تحتل إيران اليوم موقعا مركزيا بالغ التأثيرفي قضية العلاقات بين السنة والشيعة، سواء من خلال مواقفها ، أو من خلال المواقف منها .

السياسات الإيرانية ، الداخلية والخارجية ، تعد من العوامل الحاسمة في تحديد مسار العلاقات السنية الشيعية .

---

(١) صحيح البخارى ١١ / ٤٩٥.

وإذا كانت السياسة الإيرانية الداخلية ، هي سياسة شيعية بالدرجة الأولى ، وهو أمر مفهوم ومقبول ، فإن سياستها الخارجية لابد وأن تكون سنية بالدرجة الأولى ، لأن إيران جزيرة في بحر سني . فـ « الرهان » الخارجي لإيران ، لا يسعه ـ لكي ينجح ـ إلا أن يكون سنيا . وهو خيار طالما فرطت فيه إيران أو قلبت له ظهر المجن ، وخاصة في السنين الأولى للثورة ...

نعم يسجل لإيران موقفها المبدئي الصارم تجاه القضية الفلسطينية، ولكن الرقعة الإسلامية وقضاياها ، ومتطلبات القضية الفلسطينية نفسها ، هي أوسع وأحوج إلى سياسات ومواقف إيرانية تتجاوزحدود القرابة المذهبية وأولوياتها. بل إن السياسة الداخلية نفسها ، مدعوة إلى قطع جميع الاتهامات والشبهات المتعلقة بحقوق السنة ، من كرد وعرب وغيرهم .

من الجهة الأخرى ، يحلو لكثير من السادة الغربيين والساسة المحليين ، التنديد بالتدخلات الإيرانية في القضايا العربية ، والتحذيرُ من الأدوار الإيرانية في المنطقة ، ومن الطموحات الإقليمية لإيران ... وهم عادة مايقصدون تأثيرها في العراق ولبنان وفلسطين وأفغانستان .

وبخصوص العراق ، يعلم الجميع أنه يخضع لتدخل أجنبي ، غربي وغريب ، يحتل البلاد ويقتل العباد ، يدمر العمران ويقهر الإنسان . وهو يهدد كافة دول المنطقة وشعوبها ، وفي مقدمتها إيران . فكيف يقع هذا ويُقبل ، ويستتب ويستمر، ثم يُستنكر على إيران تدخلها وعلاقاتها ، وهي طرف شقيق وشريك كامل لأهل المنطقة ، يصيبها ما يصيبهم ويعنيها مايعنيهم ؟!

المفروض والمطلوب ـ في ظل الوضعية القائمة في العراق ـ أن يكون لإيران تدخل أكثر ودور أكبر في العراق ، بشرط واحد ، هو أن يكون ذلك عادلا ومتوازنا بشكل واضح لا لبس فيه ، وأن لا يظل محكوما بمنطق مذهبي وحسابات طائفية ؟ نرجو أن نسمع الجواب ، وإن كنا نفضل أن نراه على أرض الواقع .

أما في لبنان وفلسطين ، فإن جميع " الاتهامات" الموجهة لإيران ، إنما هي أوسمة شرفية يُعترف لها بها . وكل العرب والمسلمين ممتنون شاكرون لإيران ، على دعمها للمقاومة في البلدين المبتلين بأخبث احتلال وأشرس عدوان . وكلنا نتمنى لو كانت إيران قادرة على التأثير أكثر ،وعلى تقديم ما هو أكبر ، خاصة للمقاومة الفلسطينية وللشعب الفلسطيني ، فإن هذا

من شأنه أن يخدم الوحدة والأخوة الإسلامية ، بين السنة والشيعة ، ولو كره الكارهون .

قضية التبشير المذهبي بين السنة والشيعة

تثير هذه القضية حساسية وتوترا ـ من حين لآخر ـ بين السنة والشيعة ، وخاصة في أوساط العلماء والدعاة من أهل السنة . وسببها أن إيران وحوزاتها ، قد نشطت في تشييع الشباب من أهل السنة ، وأحدثت بذلك اختراقات شيعية ، حتى في الأقطار التي ظلت سنية خالصة على مدى قرون وقرون ، كالسودان وشمال إفريقيا . ولم يسبق لي أن سمعت شكوى شيعية من التبشير السني الممنهج في الأوساط الشيعية . فالمشكلة إذاً محصورة في التبشير الشيعي في صفوف السنة ، أو محصورة في التشييع الممنهج لبعض أهل السنة.

وأنا أريد أن أقول كلمتين ، إحداهما في الاتجاه الشيعي ، والأخرى في الاتجاه السني.

١ . إذا كانت إيران/ الحوزة ، تربح من هذه العملية بضعة آلاف من الشيعة الجدد ، يزيدون وينقصون ، فإن إيران/ الدولة ، قد خسرت ، وما زالت تخسر، كثيرا من هذه العملية . وحتى إخواننا الشيعة الجدد ، فإنما يتم إدخالهم في

السراديب ، وفي حالة من الحصار والاغتراب ، داخل أوطانهم ومجتمعاتهم ، ولن ترتفع هذه الحالة ، إلا بانقراضهم . أما الاتجاه الآخر فمستحيل...

٢. هذه الحالة ، وإن كان من الطبيعي أن تستفز أهل السنة وعلماءهم ، فلا ينبغي تضخيمها أو اتخاذها سببا لتوتير العلاقة وشحذ العداوة ، مع إيران ومع الشيعة عموما.ولا ننس أن بلداننا ـ بدون استثناء ـ قد أصبحت مسرحا ومرتعا للتبشير من جميع الجهات ، الدينية واللادينية . وهذا جزء من طبيعة العصر وخصائصه.

ثم إن موجات التشيع في الأوساط السنية ، مرتبطة ببعض الانتصارات والمكاسب التي تحققها إيران أو حزب الله في لبنان ؛ فهي تطفو مع وجودها وفي أوجها ، ثم سرعان ما تخبو وتنكمش بعد ذلك...

عن الملف النووي الإيراني

لقد أصبح ما يسمى « الملف النووي الإيراني » ، الشغل الشاغل للسياسة الخارجية ، للدول الغربية الاستكبارية ، وخاصة تلك التي يقودها « المجانين الجدد » . ويفترض أن التحضير لحرب جديدة على إيران ، يجري بمنتهى الدقة

والتأني ، منذ عدة سنوات . لكن التنفيذ تعترضه صعوبات كبيرة وتداعيات خطيرة . وتستمر الحسابات والإعدادات جنبا إلى جنب ، في انتظار ما سيبدو كأنه اللحظة المناسبة للهجوم.

إن إيران جديرة بالمناصرة القوية في هذا الملف ، من جميع العرب والمسلمين ، ليس فقط لكونها جزءاً منهم ، ولكن لأسباب موضوعية لا غبار عليها ، وهي:

١. إيران لحد الآن تعلن وتؤكد تمسكها بالأغراض العلمية والسلمية لبرنامجها النووي . وهو ما تؤكده الوكالة الدولية للطاقة الذرية.

٢. إيران لم يسبق لها أن شنت حربا أو قامت بأي اعتداء ضد أي بلد ، مجاور أو غير مجاور ، بينما هي قد تعرضت للحرب والعدوان ، من جيرانها العرب ، ومن الدول الغربية . وهي اليوم تحت رحمة الحصار المتواصل والتهديدات اليومية بشن حرب أخرى ضدها.

٣. إن الذين يهددون إيران ويتخذون من محاربتها شغلهم الشاغل ، هم الذين ملأوا دول المنطقة وبحارها وأجواءها ، بجيوشهم وكافة أسلحتهم ، ونشروا فيها الفوضى والدمار والخراب والدماء .

٤. إن هؤلاء أنفسهم، هم مَنْ يضعون العالم كله، تحت الخطر الماحق لأسلحتهم النووية، ولكل أسلحة الدمار الشامل، المكدسة في قواعدهم عبر العالم كله. وهم الذين سبق لهم استعمال هذه الأسلحة فعليا، وليس ظنا أو توقعا أو تهديدا. وحتى أعقلهم، الرئيس الفرنسي السابق جاك شيراك، لم يفته التهديد باستعمال أسلحة «غير تقليدية»، قبل شهور من مغادرته الرئاسة. فهؤلاء هم مَن يجب أن يتوجه إليهم كل حظر وكل تدبير احترازي ...

*****

obeikandl.com